١

أليس الدِّين في حالة اندثار؟

يشيرُ اختيارُك لهذا الكتاب إلى اهتمامك بسؤال ما إذا كان الإيمان الدينيُّ ممكنًا في عصرنا هذا، لكن هل ينبغي لك الاستمرار في القراءة حقًّا؟ أليس وجود كتابٍ عن جدوى الدِّين ما هو إلَّا محاولة أخيرة يائسة؟ أليست الحقيقة الأعظم أنَّ "عدم الإيمان يتقدَّم"؟ ألم يفقد الدِّين عمومًا، ولا سيَّما المسيحيَّة التأثير والقوَّة؟ أليسا في انحدارٍ محتوم؟ ألا تجدُ نسبٌ متزايدة من الناس، لا سيَّما جيل الألفيَّة*، احتياجًا متناقصًا إلى الله والإيمان في حياتهم؟

دعت إحدى السيِّدات في كنيستي زميلًا لها من عالَم الأعمال ليزور أحد اجتماعات العبادة يومَ الأحد، وانبهرَ الرجلُ الذي كان في الخمسينيَّات من العمر إذ رأى الآلاف من المهنيِّين وسط الحضور، وأغلبهم من الشباب ويعيشون في مَنهاتن، وقد وجد الاجتماع مفيدًا ومحفِّزًا فكريًّا، بل مؤثِّرًا أيضًا، ثمَّ اعترفَ لها بِحَيْرته جرَّاء حضوره الاجتماع، وحين سألَتْه عن السبب، أجاب: "لقد كان اعتقادي راسخًا أنَّ الدِّين يُحتضَر، على الأقلِّ بين المتعلِّمين وبالتأكيد بين الشباب، ويمكنني فهمُ انجذاب الشباب إلى الأنشطة المسيحيَّة من نوعيَّة حفلات موسيقا الروك وما إلى ذلك، لكن ما اختبرْتُه هنا يصيبُ ذلك الافتراض في مقتل".

* "جيل الألفيَّة" تعبير يصف الأشخاص المولودِين في الفترة من ثمانينيَّات القرن العشرين إلى السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين (الناشر).

بعد أن أجرى مركز البحوث "بيو ريسيرتش سنتر" (Pew Research Center) دراسة حديثة ضخمة، نشرت صحيفة "**واشنطن بوست**"(Washington Post) مقالةً بعنوان "من المتوقَّع أن يصبح العالم أكثر تديُّنًا- وليس أقلَّ تديُّنًا". وفي حين تذكرُ المقالةُ تزايدُ نسبة مَن هُم دون انتماء دينيٍّ في الوقت الحاليِّ في الولايات المتَّحدة وأوروبَّا، فإنَّها تستخلصُ من نتائج البحث أنَّ الدِّين عمومًا في العالم ينمو نموًّا ثابتًا وقويًّا؛ إذ سيُشكِّلُ المسيحيُّون والمسلمون نسبة متزايدةً من تعداد العالم، في حين ستتقلَّص نسبةُ العَلمانيِّين، ويُشارُ إلى ما قاله جاك غولدستون (Jack Goldstone)، أستاذُ السياسة العامَّة في جامعة جورج ميسون (George Mason): "تعجَّلَ علماءُ الاجتماع حين قالوا إنَّ نموَّ التحديث سيجلبُ نموًّا للعَلْمَنة وعدم الإيمان...مشيرًا إلى أنَّ «ذلك ليس ما نراه يحدث عمليًّا»، وأضاف أنَّ «الناس...يحتاجون إلى الدِّين»".[1]

كان ردُّ فعل الكثير من قرَّاء "**واشنطن بوست**" يشبهُ ردَّ فعل الرجل الذي زار كنيستَنا؛ إذ وجدوا أنَّ نتائج الدراسة لا تُصدَّقُ، فصرَّح أحدُهم قائلًا: "من السهل التخلُّص من الدِّين فقط بتعليم الناس عن الأديان الأخرى، أو حتَّى بإعطائهم نظرة علمانيَّة حياديَّة عن تاريخ أيِّ دِين نشأ فيه الطفل".[2] وبكلماتٍ أخرى، ما دامت مستويات التعليم في الارتفاع، والتحديث يتقدَّم، **لا بدَّ** من اختفاء الدِّين. وبحسب هذا الرأي، يشعرُ الناسُ باحتياجهم إلى الدِّين فقط إذا كانوا غير مُثقَّفِين في العِلم والتاريخ والتفكير المنطقيِّ.

ولكنَّ الدراسة التي أجراها مركز بيو هدَّدَتْ كلَّ هذه المعتقدات العميقة بشأن تديُّن الناس، وقَبْل وقتٍ قريب كان الباحثون الروَّاد في المجتمع الغربيِّ يُجمِعون تقريبًا على الاعتقاد أنَّ الدِّين في حالة انحدار محتوم، وكانوا يعتقدون أنَّ الاحتياج إلى الدِّين سيتراجعُ كلَّما قدَّم العِلمُ تفسيراتٍ لعناصر الطبيعة وعونًا لمواجهتها أفضل ممَّا قدَّمه الله. وعبَّر جون لينون (John Lennon) في عام ١٩٦٦م عن هذا الإجماع حين قال: "ستذهبُ المسيحيَّةُ، ستختفي وتتقلَّصُ،

ولا أحتاج إلى مناقشة ذلك الأمر؛ فأنا على صوابٍ وستَثبُتُ صحَّةُ كلامي".[٣]

ولكنْ لم يحدث هذا الأمر كما كان يروَّج، إذ تُثبِتُ دراسة مركز بيو أنَّ الدِّين في الارتفاع وأنَّ ظهور "ملحدِين جُدد" يتكلَّمون بصراحةٍ وبنغمةٍ أعلى قد يكون ردَّ فعلٍ لاستمرار الدِّين النابض بالحياة، بل لظهوره من جديد[٤]، ولا يحدثُ ازدهار الإيمان فقط بين الأقلِّ ثقافةً، فعبْر الجيل الأخير أنتجَ فلاسفةٌ- مثل ألاسدير ماكينتاير (Alasdair MacIntyre) وتشارلز تايلور (Charles Taylor) وألڤين پلانتينغا (Alvin Plantinga)- قدرًا ضخمًا من الأعمال العِلميَّة الأكاديميَّة الداعمة للإيمان بالله والناقدة للعلمانيَّة الحديثة على نحوٍ تصعبُ الإجابةُ عنه.[٥]

يخبرُنا علماء الديموغرافيا (علم السكَّان) أنَّ القرن الحادي والعشرين سيكون أقلَّ علمانيَّة من القرن العشرين، فهناك تحوُّلاتٌ دينيَّة ضخمة نحوَ المسيحيَّة في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى وفي الصين، في حين نمتِ الأنغليكانيَّة والخمسينيَّة نموًّا مُطَّردًا في أميركا اللاتينيَّة. حتَّى في الولايات المتَّحدة، فإنَّ نموَّ فئةِ "مَن هم دون انتماء" هو في الغالب وسط أولئك مَن كانوا شكليِّين في علاقتهم بالإيمان، بينما ينمو المتديِّنون المُكرَّسون في الولايات المتَّحدة وأوروبَّا.[٦]

لكلِّ خمسة أشخاص في العالم، يحسب أربعةٌ منهم (أي ما يعادل ٨٠٪) الإيمان بالله أمرًا منطقيًّا، وسيستمرُّ في كونه منطقيًّا في المستقبل القريب.[٧] لذا، فالسؤال العاجلُ هو: لماذا؟ لماذا لا يزال الدِّين ينمو وسط هذا القدر الكبير من المعارضة العَلمانيَّة؟ وقد يجيبُ بعضُ الأشخاص أنَّ أغلب الناس في العالم لم يتلقَّوا التعليمَ الكافيَ، في حين قد يكون آخرون أكثر حدَّةً ويجيبون قائلين: "لأنَّ أغلب الناس حمقى". لكنَّ هناك إجابةً أكثر رصانةً وأقلَّ فظاظة؛ فهناك سببان جيِّدان لاستمرار الدِّين ونموِّه: التفسير الأوَّل يقول إنَّ كثيرين يجدون في المنطق العلمانيِّ "أمورًا ناقصة"- أمورًا ضروريَّة للحياة الجيِّدة. والتفسير الآخر يشيرُ إلى أنَّ أعدادًا عظيمة من الناس تشعرُ شعورًا حدسيًّا بوجود عالمٍ فائق للطبيعة، وسننظرُ إلى هاتَين الفكرتَين بتفصيل أكثر.

إدراك أنَّ هناك أمرًا ناقصًا

قبل بضع سنوات، كانت هناك سيِّدة صينيَّة تدرس دراسات عليا في جامعة كولومبيا (Columbia) في النظريَّة السياسيَّة، وبدأَتْ في حضور اجتماعات كنيستنا، وكانت قد جاءت لتدرسَ في الولايات المتَّحدة جزئيًّا بسبب الرأي المتنامي وسط علماء الاجتماع الصينيِّين أنَّ الفكرة المسيحيَّة للسموِّ هي الأصل التاريخيُّ لأفكار حقوق الإنسان والمساواة[٨]، وكانت تقول إنَّ العِلم وحده لم يستطع إثبات تساوي البشر، وعبَّرْتُ عن دهشتي، لكنَّها قالت إنَّ هذا الرأي كانَ ليس فقط رأي بعض الأكاديميِّين الصينيِّين، بل أيضًا إنَّ هذا ما يقوله بعض المفكِّرين العَلمانيِّين الأجلَّاء في الغرب. وبمساعدتها استنتجتُ أنَّ الإيمان يحقِّق ما يشبهُ العودة في دوائر فلسفيَّة حيث كان المنطق العلمانيُّ- أي العقلانيَّة والعِلم دون أيِّ إيمان بحقيقة سامية فائقة للطبيعة- يُرَى أكثر وأكثر على أنَّه يفتقد إلى أمور يحتاج المجتمعُ إليها.

كان يورغن هابيرماس (Jürgen Habermas)، وهو أحدُ أبرز فلاسفة العالم، مُدافِعًا لعقود طويلة عن رأي التنوير القائل إنَّ المنطق العلمانيَّ وحده هو ما ينبغي استخدامُه في الساحات العامَّة.[٩] لكنْ أدهَشَ هابيرماس المؤسَّسة الفلسفيَّة مؤخَّرًا بتوجُّهٍ متغيِّرٍ وأكثر إيجابيَّة نحو الإيمان الدينيِّ، فهو يؤمن الآن بأنَّ المنطقَ العلمانيَّ وحده لا يستطيع تفسير ما يدعوه "جوهر الإنسان"؛ إذ يرى أنَّ العِلم لا يمكنه تقديم الوسائل للحُكم على ما إذا كانت الاختراعات التكنولوجيَّة جيِّدة أم سيِّئة للبشر، إذ علينا معرفة معنى أن يكون الشخص جيِّدًا، ولا يمكن أن يفصلَ العلم في الأخلاقيَّات أو أن يُعرِّف مثل هذا الأمر.[١٠] وقد تستطيعُ العلومُ الاجتماعيَّة أن تخبرنا بماهيَّة الحياة البشريَّة وليس بما يجبُ أن تكون عليه.[١١] وبينما كان حلمُ أتباع المذهب الإنسانيِّ في القرن التاسع عشر هو أن يقود انحسار الدِّين إلى حروبٍ ونزاعات أقلّ، تميَّز القرنُ العشرون بعنفٍ أعظم تقترفه دولٌ تظهرُ في صورةٍ لادينيَّة، وتعملُ على أساس العقلانيَّة العلميَّة. ويخبرُ هابيرماس أولئك الذين ما يزالون على

ثقة بأنَّ "المنطق الفلسفيَّ...قادرٌ على تحديد ما هو صحيح وما هو خاطئ" أن ينظروا ببساطة إلى "كوارث القرن العشرين- دول شيوعيَّة وفاشيَّة دينيَّة تعملُ على أساس المنطق العمليِّ- ليروا أنَّ هذه الثقة ليست في محلِّها".[١٢] لقد اقتُرِفَتْ أمورٌ فظيعة بِاسْم الدِّين، ولكنْ لم تُثبِت العَلمانيَّة أنَّها تقدِّمُ تحسُّنًا.

يأتي الدليلُ القويُّ لفرضيَّة هابيرماس من بحثٍ حديثٍ عن تاريخ "حركة تحسين النَّسل"** (Eugenics Movement) في بدايات القرن العشرين، ويشيرُ توماس سي. ليونارد (Thomas C. Leonard) من جامعة پرينستون (Princeton) إلى أنَّه قبل قرن مضى، كانت السياسات الاجتماعيَّة التقدُّميَّة والمبنيَّة على العِلم تُفهَم فهمًا عامًّا على أنَّها تستلزم التعقيم والحبس لأولئك الذين حُسِب أنَّ لديهم جينات معيبة.[١٣] وفي عام ١٩٢٦م حُوكِم جون تي. سكوپس (John T. Scopes) محاكمة مشهورةً بحسب قوانين ولاية تينيسي لتدريسه التطوُّر. لكنْ قد لا يذكر الكثيرون أنَّ الكتاب الذي كان سكوپس يستخدمه "**البيولوجيا المدنيَّة**" *(Civic Biology)* لكاتبه جورج هَنتر (George Hunter) كانَ يعلِّم ليس فقط عن التطوُّر، بل كان يرى أيضًا أنَّ العِلم يُملي علينا التعقيم، بل حتَّى القتل لأصناف الناس الذين يُضعِفون من الموروث الجينيِّ البشريِّ، وذلك بنشْر "المرض والفجور والجريمة إلى كلِّ أجزاء هذا البلد"[١٤]، وكان هذا معتادًا في الكتب العلميَّة في ذلك الوقت.

ولم يكُن العلمُ هو ما أضعف الثقة في تحسين النسل (Eugenics)، بل فظائع الحرب العالميَّة الثانية، وذلك رغم أنَّه لم يثبُتْ بتاتًا بُطلان العلاقة ما بين التكوين الجينيِّ وأنواعٍ مختلفة من السلوك المعادي للمجتمع، بل العكس صحيح؛ إذ تُظهِر دراساتٌ حديثة مثلًا أنَّ هناك جينَ استقبالٍ معيَّنًا يُنقِصُ من احتمال استمرار الأولاد في الدراسة حتَّى مع الدعم التعويضيِّ والمساعدة من المعلِّمين

** تحسين النسل "Eugenics" هو العلم المختصُّ بتحسين نسل سكَّانيٍّ بواسطة تناسل مُتحَكَّم فيه لضمان الحصول على صفات وراثيَّة مرغوب فيها (الناشر).

والوالدين.[١٥] وهناك الكثير من الروابط ما بين الوراثة والمرض والإدمانات والسلوك الصعب. ويرى توماس ليونارد أنَّ "تحسين النسل وعِلم الأعراق (Race science) لم يُحسَبا عِلمَين زائفَين في...العصر التقدُّميِّ (Progressive Era)، بل كانا يُحسَبان من العلوم المقبولة"[١٦]، لذلك كان من المنطقيِّ تمامًا استنتاج فاعليَّة الأمر من الناحية الاجتماعيَّة ومن ناحية التكلفة الاقتصاديَّة لو لم يمرِّرْ أولئك- الذين هم عُرضة جينيًّا لحياة غير مُنتِجة- الكودَ الجينيَّ (الشيفرة الوراثيَّة) إلى الأجيال اللاحقة. لكن حفَّزَتْ معسكراتُ الموت ظهور الحدس الأخلاقيِّ القائل إنَّ تحسين النسل هو **شرٌّ** حتَّى لو كان فعَّالًا عِلميًّا، لكنَّك إذا آمنتَ بأنَّه شرٌّ، فعليك أن تجدَ دَعمًا لاقتناعك هذا من مصدر ما يفوقُ العِلم ويفوقُ التحليل العقلانيَّ الصارم للتكاليف والفوائد بالمنطقِ العمليِّ، فأين تبحثُ عن هذا الدعم؟ يكتبُ هابيرماس قائلًا: "إنَّ مُثُل الحرِّيَّة...من الضمير وحقوق الإنسان والديمقراطيَّة [هي] الإرث المباشر للأخلاقيَّات اليهوديَّة المنادية بالعدل وللأخلاقيَّات المسيحيَّة المنادية بالمحبَّة...وحتَّى يومنا هذا ليس هناك بديلٌ لها".[١٧]

لا ينفي كلُّ هذا أنَّ العِلم والمنطق مصدران لخيرٍ كثير للمجتمع البشريِّ لا يُمكن الاستغناء عنه، لكنَّ الأمرَ هو أنَّ العِلم **وحده** لا يمكنه العمل بصفةِ مُرشِدٍ للمجتمع البشريِّ.[١٨] وقد قُدِّم ملخَّصٌ جيِّدٌ عن هذا الأمر في حديث كُتِب، لكنَّه لم يُلقَ في محاكمة سكوپس المعروفة باسْم "محاكمة القرد". ونصَّ الحديثُ على أنَّ "العِلم قوَّةٌ مادِّيَّة رائعة لكنَّه ليس معلِّمًا للأخلاق، إذ يمكن أن يُحسِّنَ العِلم الآلات، لكنَّه لا يضيفُ أيَّة سيطرة أخلاقيَّة ليحمي المجتمع من إساءة استخدام الآلات... فلا يعلِّمُ العِلم [ولا يمكنه أن يعلِّم] المحبَّة الأخويَّة"[١٩]؛ فالمنطقُ العِلميُّ العَلمانيُّ خيرٌ عظيم، لكنَّه إنْ حُسِب أنَّه الأساسُ الوحيدُ للحياة البشريَّة، فسيُكتَشفُ أنَّ هناك أمورًا كثيرة جدًّا نحتاج إليها لكنَّها ليسَت موجودة.

مواجهة الموت والحصول على الغفران

يتناولُ كتابٌ مشهورٌ نقاطًا مشابهةً، وهو من الكتب الأكثر مبيعًا بعنوان "**حين تصبح الأنفاسُ هواءً**" *(When Breath Becomes Air)*، وهو يضمُّ خواطر جرَّاح أعصابٍ شابٍّ راحلٍ كتبَ عن رحلة العودة إلى الإيمان حين كان يصارع مرض السرطان[٢٠]، وكان الكاتب پول كالانيثي (Paul Kalanithi) "ملحدًا مُصفَّحًا"، وكان اتِّهامه الأساسيُّ للمسيحيَّة هو "فشلها على المستوى العمليِّ؛ إذ يقدِّمُ المنطقُ المستنير دون شكٍّ نظامًا كونيًّا أكثر اتِّساقًا...مفهومًا مادِّيًّا للحقيقة، وبالخلاصة هي نظرة عالميَّة قائمة على وجهة نظر علميَّة"[٢١]، لكنَّ مشكلة هذا المفهوم كلِّه صارت جليَّة له؛ لأنَّه إنْ كان من اللازم أن يكونَ لكلِّ شيء دليلٌ وتفسيرٌ عِلميٌّ، يقودُ ذلك "إلى إبعاد الله من العالم، لكنْ ليس فقط الله بل أيضًا إبعاد الحبِّ والكُره والمعنى-...أي إلى عالمٍ يبدو بكلِّ وضوح أنَّه **ليس** العالم الذي نعيشُ فيه".[٢٢]

ويرى كالانيثي أنَّ كلَّ ما يمكن أن يفعله العِلم هو "اختزال الظواهر إلى وحداتٍ يسهُل التعاملُ معها"؛ إذ يمكن أن يقدِّمَ "آراءً بشأن المادَّة والطاقة"، لكنَّه لا يستطيع أن يقدِّم آراء بشأن أمور أخرى. فمثلًا، يمكن أن يفسِّرَ العِلمُ الحبَّ والمعنى بوصفهما استجاباتٍ كيميائيَّة في مخِّك ساعَدتْ أسلافك على البقاء على قيد الحياة، لكنَّنا إنْ جزَمنا أنَّ الحبَّ والمعنى والأخلاقيَّات ليست فقط **تبدو** حقيقيَّة، بل هي بالفعل حقيقيَّة- وهو الأمر الذي يجزمُ به تقريبًا كلُّ إنسان- فلا يمكن أن يدعَمَ العِلم حينها ذلك. لذا يستنتج كالانيثي أنَّه "لا يمكنُ تطبيق المعرفة العِلميَّة" على "النواحي المركزيَّة للحياة البشريَّة"، بما في ذلك الرجاء والحبُّ والجمال والوفاء والمعاناة والفضيلة.[٢٣]

حين أدرك كالانيثي أنَّه ما من إثبات علميٍّ على حقيقة المعنى والفضيلة، وهي أمورٌ كان على يقينٍ بوجودها، جعله ذلك يعيد التفكير في نظرته إلى الحياة بالكامل، لأنَّه إن كانت فرضيَّة العلمانيَّة تقودُه إلى استنتاجات يعلمُ أنَّها خاطئة-

تحديدًا أنَّ الحبَّ والمعنى والأخلاقيَّات هي أوهام- يكون قد حان الوقت لتغيير فرضيَّته. وحينها وجد أنَّه من المعقول الإيمان بالله، فوصل إلى إيمان ليس فقط بالله بل أيضًا "بالقِيَم المركزيَّة للمسيحيَّة- التضحية والفداء والغفران- لأنِّي وجدْتُها تفرضُ نفسها بكلِّ قوَّة".[٢٤] وكان پول كالانيثي قد وجد أيضًا، بتعبير هابيرماس، أنَّ في وجهة النظر العَلمانيَّة البحتة الكثيرَ من الأمور "الناقصة"- أمورٍ كان يعرفُ أنَّها ضروريَّة وحقيقيَّة أيضًا.

يشيرُ كالانيثي إشارةً عابرة إلى الغفران بوصفه أحد الأسباب التي جعلَتْه يترك العلمانيَّة وراءه، ورغم أنَّه لا يُسهب في الشرح، فإنَّ هناك ما يمكنه تسليط بعض الضوء على هذا الأمر، فكانت للكاتبة والمعلِّمة ريبيكا پيپرت (Rebecca Pippert) الفرصة لفحص بعض الموادِّ الدراسيَّة للدراسات العُليا في جامعة هارڤرد، وكانت إحدى تلك الموادِّ مادَّة "أنظمةُ المشورة". وكان الأستاذُ يعرضُ دراسة حالة استُخدِمَتْ فيها الأساليب العلاجيَّة لتساعدَ رجلًا ليكشفَ عدوانًا عميقًا وغضبًا نحوَ والدته، وساعد هذا الكشفُ ذاك الشخصَ ليفهمَ نفسَه بأساليبَ جديدة، وبعدها سألَتْ پيپرت الأستاذ عن الكيفيَّة التي كان سيردُّ بها لو كان الرجل قد طلب المساعدة ليغفر لأمِّه[٢٥]، فأجاب الأستاذ أنَّ الغفران فكرةٌ تفترضُ المسؤوليَّة الأخلاقيَّة وأمورًا أخرى كثيرة لا يستطيعُ علمُ النفسِ العِلميِّ تناولها. ونادى بأن "لا تفرضْ قِيَمَك...بشأن الغفران على المريض"، وحين كان ردُّ فعل بعض الطلَّاب يتَّسمُ بالحيرة والفزع، حاول الأستاذ تخفيف التوتُّر باستخدام بعض الفُكاهة، فقال: "إذا كنتُم تبحثون عن تغيير القلب، أعتقدُ أنَّكم تبحثون في القسم الدراسيِّ الخاطئ". لكنَّ پيپرت تعلِّقُ قائلةً: "الحقيقة هي أنَّنا نبحث **فعلًا** عن تغيير القلب"[٢٦]، ولا يمكن أن يعطيَنا المنطق العَلمانيُّ وحده أساسًا "للتضحية والفداء والغفران" كما قال پول كالانيثي في آخر أشهرٍ من حياته.

إحساسٌ بالأمور الفائقة

هناك سببٌ آخر، حتَّى في عصرنا العلمانيِّ هذا، يجعل الناس يستمرُّون في الاعتقاد بمنطقيَّة الدين، وهذا السبب وجوديٌّ أكثر من كونه فكريًّا. وفي هذا الصدد كتب الأستاذ في جامعة هارڤرد جيمس وود (James Wood) في مقالة في "**نيويوركر**" (New Yorker) بعنوان "هل ذلك كلُّ ما هنالك؟" (Is That All There Is?)، وكان يتكلَّم عن صديقةٍ له وهي فيلسوفةٌ تحليليَّة وملحدة واثقة، وكانت تنهضُ أحيانًا في منتصف الليل يُطاردها قلقٌ عميقٌ:

> **"كيف يمكن أن يكون هذا العالَم هو نتيجة لانفجار عظيم عرضيٍّ؟ كيف يمكن ألَّا يكون هناك تصميم ولا غرضٌ يفوق المادَّة؟ أمِن الممكن أن تكون حياة كلِّ إنسان- ابتداءً من حياتي أنا، وحياة زوجي، وحياة طفلي، مرورًا بحياة كلِّ مَن هو خارج دوائري- غير ذات صلة على المستوى الكونيِّ؟".**[٢٧]

وود، وهو نفسُه عَلمانيٌّ، يعترفُ أنَّه "حين يكبرُ الشخصُ ويبدأ الأهلُ والأقران في الوفاة، ولا تصبح حينها إعلانات الوفَيَّات في الصحيفة مجرَّد خطابات رسميَّة من مكان بعيد جدًّا لكنَّها رسائل محلِّيَّة؛ وحين تبدو المشاريع الشخصيَّة زائلة وغير ذات فائدة، تبدو لحظات الرعبِ والحيرة هذه أكثر تكرارًا وحِدَّة، وأجدُها تظهرُ في وسط النهار كما في الليل".[٢٨]

ما هذه "الحَيرة" التي يمكنُها الإمساك فجأةً بالعلمانيِّين أيضًا؟ تكشفُ أسئلة صديقة وود عن حدسٍ أكثر ممَّا تكشفُ عن خطٍّ منطقيٍّ من التفكير، وهو الإحساس بأنَّنا أكثر من مجرَّد أجساد مادِّيَّة، وأنَّ الحياة هي أكثر ممَّا يمكننا رؤيته في العالم المادِّيِّ، حين كان ستيڤ جوبز (Steve Jobs) يتأمَّلُ بشأن موته، اعترفَ بشُعوره بأنَّه "من الغريب أن تفكِّرَ في أنَّك تكدِّسُ كلَّ هذه الخبرة...ثمَّ تزول هذه

الخبرة. لذا أريدُ حقًّا أن أصدِّقَ أنَّ أمرًا ما يبقى على قيد الحياة، أنَّ ضميرَك ربَّما يستمرُّ". كان الأمرُ يبدو لجوبز زائفًا ولا يتناسب مع الواقع أنَّ الموت، من جهة أهمِّيَّة النفس البشريَّة، سيكون مجرَّد «زرِّ إيقافٍ»، ولا يكون الأمرُ سوى «نقرٍ على هذا الزرِّ، وينتهي وجودك»".[٢٩]

ليزا تشيس (Lisa Chase)، أرملةُ الصحافيِّ البارز بيتر كابلان (Peter Kaplan)، ترفضُ أيضًا النظرة العلمانيَّة المغلَقة إلى العالم، إذ تؤمن بأنَّ زوجها الراحل ما يزالُ حيًّا في الروح، وفي نهاية مقالتها في مجلَّة "إل" (Elle) كتبَتْ اقتباسًا ممَّا قاله ابنُها في حُزن، إذ قال: "كم أودُّ لو كنَّا نعيشُ في عالمٍ سحريٍّ [بدلًا من عالَم] لا يقدِّمُ العلمُ فيه الإجابة عن كلِّ شيء". وتخلُصُ تشيس، رغم أنَّها تعيشُ في قلب مَنهاتن التقدُّميَّة المُعقَّدة، إلى أنَّ وصف ابنها "للعالم السحريِّ" **هو حقًّا** أقربُ إلى الحقيقة من عالَمٍ مادِّيّ"[٣٠]، وأصبح حدسُها بشأن حقيقة الأمور الفائقة للطبيعة أقوى كثيرًا.

أحيانًا يثيرُ هذا الحدس اعتراضًا ضدَّ الطريقة التي تبدو فيها العلمانيَّة كأنَّها تُسطِّحُ الحياة وتختزلها حتَّى إنَّ "كلَّ ما نفعله ونمضيه لا يمثِّلُ سوى التَّملْمُلَ بينما ننتظرُ الموتَ".[٣١] وفي أحيان أخرى، يكون الأمرُ تخوُّفًا أكثر إيجابيَّة من حقائق يخبرنُا منطقُنا الموضوعيُّ بأنَّه لا يجوزُ أن تكون موجودة؛ فمثلًا يجدُ جوليان بارنز (Julian Barnes) نفسَه متأثِّرًا بعمقٍ بأعمالٍ فنِّيَّة معيَّنة حتَّى إنَّه يدركُ أنَّ مثل هذه الأعمال يجب ألَّا تؤثِّرَ فيه هكذا، فمثلًا مقطوعة "**قدَّاس الموت**" (Requiem) لموزار (Mozart) تعتمدُ في فخامتها المبهِرة على الفهم المسيحيِّ للموت والدينونة والحياة الأخرى، لكنَّ بارنز يرفضُ بمنطقه الموضوعيِّ هذه الأفكار، إذ يؤمن بأنَّه ما مِن شيء بعد الموت سوى الفناء. لكنَّ موسيقا "**قدَّاس الموت**" تحرِّكُه- ليست فقط الأصوات بل الكلمات، ويكتب قائلًا: "إنَّها واحدة من الافتراضات التي تُطارِدُ غير المؤمن، فكيف سيكون الأمر «لو كان [قدَّاس الموت] صحيحًا»[؟]".[٣٢]

يسألُ الفيلسوفُ تشارلز تايلور ما إذا كان أناسٌ مثل بارنز قادرِين على تفسير سبب أنَّ مثل هذه الأعمال الفنِّيَّة تؤثِّرُ فيهم تأثيرًا عميقًا بهذا الشكل. فهناك أوقاتٌ حين "نصطدمُ" بمثل هذه الخبرات من الجمال الغامر حتَّى إنَّنا نشعرُ باضطرارنا إلى استخدام تعبير "الروحيّ" لشرْح ردِّ فعلنا، ويعلِّمُ المفكِّرون العلمانيُّون مثل عالم هارفرد ستيفن بينكر (Steven Pinker) بصورة مستمرَّة أنَّ أصلَ إحساسنا الجماليِّ لا بُدَّ أنَّه، مثل كلِّ الأمور الأخرى الخاصَّة بنا، متعلِّقٌ بأمرٍ ساعد أسلافَنا ليبقوا على قيد الحياة، ثمَّ تسلَّمْناه نحن بواسطة جيناتنا.[٣٣]

غير أنَّ التفسيرات المختزلة مثل تفسير بينكر تؤيِّدُ ما يقوله تايلور؛ فأغلبُ الناس وليس فقط غير المتديِّنِين سيعترضون قائلِين: "لا!"- فلا يمكن أن يكونَ هذا الجمال موجودًا لذلك السبب فقط (أي للمساعدة على البقاء على قيد الحياة)، ويكتبُ تايلور قائلًا: "وهنا التحدِّي لغير المؤمن أن يجد أسلوبًا غير إلهيٍّ يتجاوب به مع [الأعمال الفنِّيَّة العظيمة] دون إفقارٍ للأمر".[٣٤] وأعتقدُ أنَّ تايلور يقصدُ ما يلي: إذا اجتاحك عملٌ فنِّيٌّ وأبهرَك بالفرح والعجب، فسيكون مُفقِرًا لك أن تُذكِّرَ نفسَك أنَّ هذا الشعور هو ببساطة تفاعل كيميائيٌّ ساعد أسلافَك ليجدوا الطعام، ويهربوا من الحيوانات المفترسة وليس أكثر من هذا، وحينها ستحتاج إلى وقاية نفسك من نظرتك العلميَّة البحتة إلى الأمور لكي تحصل على أفضل خبرة في الاستمتاع بهذا العمل الفنِّيِّ، فمن الصعب الحصول على "استمتاعٍ حقيقيٍّ جدًّا بالموسيقا لو عرفْتَ وتذكَّرْتَ أنَّ أهمِّيَّتها هي محض خيال".[٣٥] واعترفَ ليونارد بيرنشتاين (Leonard Bernstein) اعترافًا مشهورًا أنَّه حين كان يسمعُ موسيقا عظيمة وجمالًا عظيمًا كان يشعر "بالسماء"، وكان يشعرُ بمنظومةٍ ما وراء الأشياء، وقال: "لديه [أي بيتهوفن] جمال حقيقيٌّ، أمورٌ من السماء، القوَّة لجعلك تشعرُ عند نقطة النهاية على النحو التالي: هناك أمرٌ ما صحيحٌ في العالم، هناك أمرٌ ما موجودٌ في كلِّ المراحل، ويتبعُ ناموسَه باتِّساقٍ- أمرٌ يمكننا الثقة به، وهو لن يخذلنا البتَّة".[٣٦]

هل يمكن إذًا أن يستمرَّ الفنُّ في إثارة حدسٍ لا مفرَّ منه لدى الناس بأنَّ هناك في الحياة أكثر ممَّا يمكن أن تفسِّرَه المنظومة العلميَّة؟

اختبار الملء

يبدو الدِّين أيضًا منطقيًّا لدى الكثير من الناس بسبب الاختبار المباشر لما هو فائق، ما يسمو فوق الحدس الباهت للاستمتاع بالخبرة الجماليَّة.

يناقشُ وود في مقالته "هل ذلك كلُّ ما هنالك؟" وصف تشارلز تايلور "للملء"[٣٧]، ففي بعض المرَّات يختبر المرء ملئًا يبدو فيه العالم كأنَّه مشحونٌ بالمعنى والترابط والجمال التي تخترقُ كلُّها شعورنا المعتاد من الوجود في العالم[٣٨]، وبعضٌ ممَّن يختبرون هذا يعرفون حتمًا أنَّ هناك الكثير جدًّا للحياة من مجرَّد الصحَّة البدنيَّة والغِنى والحرِّيَّة؛ فهناك عُمقٌ وعجبٌ ونوعٌ ما من "الحضور" الذي يسمو ويفوق الحياة العاديَّة، وقد يجعلُنا نشعر بأنَّنا صغار بل لسنا مهمِّين أمامَه، لكنَّه يجعلنا نمتلئ بالرجاء ونشعر بعدم القلق بشأن الأمور التي عادةً ما تجعلنا قلقين.

هذه الخبرات هي على الأرجح أكثر حدوثًا ممَّا يُظنُّ؛ لأنَّ أغلب الناس الذين يخبرون بها يفعلون ذلك دون حماسةٍ، عالِمين أنَّ أصدقاءهم وعائلتهم سيظنُّون أنَّهم فقدوا إحساسهم بالواقع، وقد كتبَ فرانك بروني (Frank Bruni) في صحيفة "**نيويورك تايمز**" (New York Times) بشأن مثل هذه الخبرات والتي تجعل الناس يشعرون كأنَّهم في الوسط "ما بين التقوى والإلحاد" إذ تبدو هذه الخبرات كأنَّها تقود إلى استنتاج أنَّ هناك أمرًا ما وراء العالم المادِّيِّ المنظور[٣٩]، ويسمِّي الفيلسوفان هيوبرت درايفس (Hubert Dreyfus) وشون كيلي (Sean Kelly) هذه الخبرة "الصوت الخاطف"[٤٠]، ويتحدَّثُ الفيلسوف الإنكليزيُّ روجر سكروتن (Roger Scrotun) عن الشعور "بالنظام المقدَّس" الذي يداوم على الظهور في وعينا.[٤١]

ويمكن ملاحظة مثال نموذجيٍّ لذلك في ما حدث مع اللورد كينيث كلارك

(Kenneth Clark)، وهو أحدُ أبرز مؤلِّفِي الفنِّ في بريطانيا العُظمى ومؤرِّخيه، وهو منتج البرنامج التليفزيونيِّ "**الحضارة**" (Civilization) على شبكة "بي. بي. سي" (BBC)، إذ يكتبُ كلارك في وصفٍ ذاتيٍّ أنَّه حين كان يعيشُ في ڤيلا في فرنسا وحدث له حادثٌ غريب.

> **"مررتُ بخبرة دينيَّة، وحدث ذلك في كنيسة سان لورينزو، لكنَّها لم تبدُ مرتبطة بالجمال المتناغم للهندسة المعماريَّة، ويمكنني فقط أن أقول إنَّ كياني كلَّه تعرَّض لبضع دقائق لأشعَّة من نوعٍ ما من الفرح السماويِّ، أشدَّ كثيرًا من أيِّ أمر آخر سبق أن اختبرْتُه، واستمرَّتْ هذه الحالة الذهنيَّة لعدَّة دقائق...ومع روعتها، سبَّبَتْ مشكلة في ما يتعلَّقُ بالتصرُّف، فحياتي كانت أبعد ما يكون عن البراءة، فكان عليَّ أن أتحسَّن، وكانت عائلتي ستظنُّ أنِّي مجنون، وربَّما كان الأمرُ خداعًا؛ إذ لم أكُن مستحقًّا بتاتًا لمثل هذا الفيض من النعمة، ثمَّ زال التأثير بالتدريج ولم أبذل أيَّ مجهودٍ للاحتفاظ به، وأعتقدُ أنِّي كنتُ على صوابٍ، فقد كنتُ منغمسًا بعُمقٍ في العالَم لدرجة لا يمكن معها تغيير مساري، لكنِّي واثقٌ بأنِّي «شعرْتُ بإصبع الله»، وأنَّه رغم تلاشي ذكرى هذا الاختبار، فما تزال تساعدني لأفهم أفراح القدِّيسين".**[٤٢]

وحدثَ اختبارٌ مشابه للكاتب التشيكيِّ والثائر الذي صار رجل دولة ڤاتسلاڤ هاڤل (Václav Havel). ففي أحد الأيَّام حين كان في السجن، نظر إلى الخارج إلى أعلى شجرة عظيمة، وفجأةً "غمره إحساسٌ" بأنَّه خطا "خارج الزمن حيث كلُّ الأمور الجميلة التي قد رأيتُها واختبرْتُها قبلًا موجودةً معًا في «حضور متشارك»"– وهو ما كان يُطلَقُ عليه تقليديًّا الأبديَّة، فقد "اجتاحه فيضٌ من الشعور بالسعادة والتناغم المطلق" وشعر بأنَّه يقف "عند حافَةٍ لانهائيَّة".[٤٣]

الإلحاد مع إله جامحٍ

بينما قدَّم كلارك وهاقل تفسيراتٍ دينيَّة لما اختبراه من ملء، هناك آخرون يحتفظون بعدم إيمانهم بالله ورغم ذلك ليست لديهم وسيلة لتفسير الاختبارات عقلانيًّا[٤٤]؛ فمثلًا تكتبُ كريستين دومبيك (Kristin Dombek) في مجلَّة "**باريس ريڤيو**" (Paris Review) قائلةً: "أنا ملحدةٌ منذ ما يزيدُ على خمس عشرة سنة، ويمكنني أن أفسِّر لنفسي تقريبًا كلَّ شيء بشأن الإيمان الذي نموتُ فيه. لكنِّي لم أستطع حتَّى الآن تفسير تلك الاختبارات التي يدخل فيها الله الغُرف كيفما يشاء، لينيرَها بالفرح وليجعل الناس كرماء...لقد كان الأمر كما لو أنَّك رأيتَ لمحةً من أفضل أسرار العالَم: وهو أنَّه ليس من الضروريِّ أن يكون الحبُّ شحيحًا".[٤٥]

وكتبَتِ المُلحدة باربرا إيرنرايك (Barbara Ehrenreich)- والمعروفة بعملها المؤثِّر "**حفنة قروش**" (Nickel and Dimed)- مذكِّراتٍ بعنوان "**الحياة مع إله جامح**" (Living with a Wild God)، والتي تتمركزُ حول اختبار روحيٍّ مغيِّر للحياة كانت قد تعرَّضَتْ له في أيَّار/مايو من عام ١٩٥٩م حين كانت في السابعة عشرة من العمر. كانت في الثالثة عشرة من عمرها قد بدأت "رحلة بحث" لتجد إجابات عن الأسئلة: ما فائدة وجودنا القصير؟ وماذا نفعلُ هنا؟ وما الغرض من ذلك؟[٤٦] وكانت إيرنرايك قد تربَّت على يدي والدَين ملحدَين، وكانت جهودها للإجابة عن هذه الأسئلة تعتمدُ على أساس عقلانيٍّ صارم، وشعرَتْ بأنَّه ما من وسيلة لمعرفة الصواب من الخطأ أو الحقيقيِّ من الزائف[٤٧]، لكن عند سنِّ السابعة عشرة، في أحد الشوارع الخالية قبل الفجر تمامًا "وجدْتُ ما كنت أبحثُ عنه منذ صياغتي لرحلة بحثي"، وكان، مثلما قال آخرون أيضًا، اختبارًا لا يمكن وصفه؛ "فلدينا هنا نطاق اللغة، حيث لا يبقى سوى قرقرة الخضوع المُعبَّر عنه في كلماتٍ مثل «لا يوصف» و«سامٍ»".[٤٨]

> **"لم تكُن هناك رؤى ولا أصواتٌ نبويَّة ولا زيارات من أشكال روحيَّة، بل كان هناك فقط هذا اللمعان في كلِّ مكان، وانسكبَ شيءٌ ما**

داخلي وأنا انسكبْتُ فيه، ولم يكُنِ الاتِّحادَ المُبهج «بالكلِّ» مثلما يعدُ به المتصوِّفون الشرقيُّون، بل كان لقاءً محتدًّا مع جوهرٍ حيٍّ... يمكن أن تَصِفَ كلمةُ «وَجْد» ذلك، فقط إذا اعترفْتَ [بأنَّها] لا تقعُ في الطيف نفسه مع السعادة أو النشوة، بل كان (أي ذلك اللقاء)... يشبه اندلاعَ عُنفٍ".[٤٩]

حيث كان لديها كلُّ دليلٍ على أنَّه يوجد على الأقلِّ "إمكانيَّة وجود كيان غير بشريٍّ..."«آخر» يتَّسمُ بالغموض...هل يمكنني أن أستمرَّ في حسبان نفسي مُلحدة؟".[٥٠] وكان رأيُها أنَّ بإمكانها ذلك، والسؤال هو لماذا؟ تقول إنَّ اختبارها هذا لم يحمل أيَّ تشابه مع "التصوُّرات الدينيَّة" التي نشأَتْ عليها.[٥١] فأوَّلًا، لم يبدُ هذا "الحضور" كأنَّه توَّاقٌ إلى البشر، مع أنَّ "الخاصِّيَّة الأشهر للإله...المسيحيِّ [هي] أنَّه «صالح»"، لكنَّ اختبارها هذا أوصلها بأمرٍ "جامح"، غير مُروَّض، بل خَطِر وعنيف، وليس مثل أيِّ شيء آخر تحسبُه لطيفًا أو صالحًا. وثانيًا، لم يأتِ اختبارُها "بتعليماتٍ أخلاقيَّة"، ولم تسمع أيَّ أصواتٍ، "فأيًّا كان ما رأيتُه فقد **كان ما كان**، دون أيَّة... إشارةٍ إلى اهتماماتٍ بشريَّة"، لكنَّها تقولُ إنَّ النتيجة المباشرة كانت أنَّها ارتجفَتْ من داخل حَيرتها الفلسفيَّة الخانقة واختُطِفَتْ نحوَ "أرض التاريخ الواسعة- المطحونين مقابل الطاحنين، والمُحتلِّين مقابل مَن يحتلُّونهم، فاختُطِفْتُ إلى هذا الصراع"[٥٢]، وأصبحَتْ ناشطة اجتماعيَّة، واستمرَّتْ هكذا بقيَّة حياتها.

وعلى عكس تفسيرها لاختبارها، يتناسب هذا الاختبار حقيقةً مع الكثير من اللاهوت المسيحيِّ والكتابيِّ عن الله، فهي تقولُ إنَّه "آخر جامح غير مطالبٍ بالأخلاقيَّات" لا "يفرِض الأخلاقيَّات"، لكنَّ سفر أيُّوب يُظهِر أنَّ البشر التقوه في الاثنين.[٥٣] ففي قصصٍ من الكتاب المقدَّس عن لقاءات مع القدُّوس (انظر سفر الخروج ٣ و٣٣ وسفر إشعياء ٦) يشعرُ الملتَقون البشر (أي الذين التَقَوا الله) بالضآلة الشديدة. وتكشفُ هذه النصوص أيضًا عن إلهٍ يتَّسمُ حضورُه بأنَّه صادمٌ بعنف،

ومميت، لكنَّه في الوقت نفسه آسِرٌ وجذَّاب. ويصِفُ القدِّيسُ أغسطينوس في كتابه "**اعترافات**" *(Confessions)* اختبارًا قبل الاهتداء إلى الإيمان، اختبر فيه الله، واستطاع أن يصفه فقط بأنَّه "وميضُ بريقٍ مرتجف" جعله يختبر لمحة مبهرة- ومُهدِّدة في ذات الوقت- لشيءٍ آخر متفرِّدٍ تمامًا.[٥٤] ولاحقًا، بعد أن التقى أغسطينوسُ الله في شخصِ المسيح، اتَّسمَتْ لقاءاته مع القدُّوسِ أنَّها "اتِّحادٌ للحُبِّ والرهبة"- اعترافات، الفصل الحادي عشر *(Confessions XI)*. ويشرحُ هنري تشادويك (Henry Chadwick) في كتابه عن لاهوت أغسطينوس:

> **"نتجتِ الرهبةُ من التفكُّر في «الآخر» [المتسامي] الذي يصعبُ الوصولُ إليه وهو بعيدٌ جدًّا و«مختلف أو متفرِّد». أمَّا الحبُّ فنتج عن إدراك «الآخر» الذي هو مألوف وقريبٌ جدًّا".**[٥٥]

حتَّى التعليق العابر لإيرنرايك أنَّه **كان ما كان** يشبهُ كلمة الله إلى موسى "أهيه الذي أهيه" (سفر الخروج ٣: ١٤)، و"الجموح" الذي تصفه إيرنرايك يتناسبُ بالكامل مع الكثير من أوصاف الله في الكتاب المقدَّس[٥٦]، إذ يظهرُ الله مثل عاصفة (أيُّوب ٣٨: ١)، وفي أماكن أخرى يأتي مثل لهيب نار (خروج ٣: ٢) أو مثل تنُّور دخان أو مصباح نار (تكوين ١٥: ١٧).[٥٧] ويبدو اختبار إيرنرايك مشابهًا تشابهًا خارقًا للوصف المشهور لرودلف أوتو (Rudolf Otto) عن "القدُّوس"، إذ أتت- مثلما يكتبُ أوتو- إلى "شيءٍ في أصله هو "آخَر تمامًا"؛ فنوعُه وشخصيَّتُه غير قابلَين للقياس بنوعنا وشخصيَّاتنا، لذلك نتلوَّى أمامَه في عجبٍ يُصيبُنا بالقُشَعريرة والخدر".[٥٨]

غير أنَّها تظلُّ مُلحدةً. ونحن قد نقولُ إنَّ إطارها العَلمانيَّ الصارم لم يَعُدْ كاملًا أو مغلقًا؛ إذ تقولُ إنَّها "لم تعُد من نوعيَّة الملحدِين المزدرِين الدوغمائيِّين مثلما كان والداها"، وحين سُئلَتْ في برنامج تليفزيونيٍّ عن إلحادها أجابت:

"قلتُ فقط إنِّي لا «أومن بالله»، وهو الأمر الصحيح بما في العبارة من محدوديَّة، ومن الواضح أنَّه لم أستطع استكمال ذلك بقولي «لستُ مُضطرَّةً إلى الإيمان بالله»؛ لأنِّي أعرفُ الله، أو أعرف ما يمكن أن يكون الله نوعًا ما"، فلا بُدَّ أنَّ اقتناعي لم يكُن كاملًا في كلامي هذا، لأنِّي تلقَّيتُ مكالمة هاتفيَّة من خالتي مارسيا (Marcia)، وهي مُلحدة بطوليَّة ذكيَّة، وقالت إنَّها شاهدَتْ البرنامج واستشعرَتْ بأصغر رعشة من المراوغة في إجابتي".[٥٩]

يرى تشارلز تايلور أنَّ "الملء" ليس فقط إيمانًا ولا فقط مجرَّد اختبار، بل هو إدراك أنَّ الحياة أعظم ممَّا يمكن أن تقدِّمَه الشروحات الطبيعيَّة، وأنَّه، كما رأينا، هو الحالة المعاشة الفعليَّة لأغلب البشر بغضِّ النظر عن وجهة نظرهم.[٦٠] والتحدِّي الذي يواجهُه المؤمنون وغير المؤمنين هو كيفيَّة فهْم هذه الحالة المعاشة من الملء داخل أُطُر إيمانهم، فإذا كانت هذه الحياة هي كلُّ ما هنالك، فلماذا نتوق توقًا عميقًا إلى أمرٍ غير موجود الآن ولم يكن موجودًا قبلًا؟ لماذا توجد الكثير جدًّا من الاختبارات التي تشيرُ إلى ما وراء الصورة التي تُقدِّمُها العلمانيَّة عن العالم، حتَّى من قِبل أولئك الذين لا يرحِّبون بمثل هذه الإدراكات أو المفاهيم؟ وإذا كانت هذه الحياة هي كلُّ ما هنالك، فماذا ستفعلُ بهذه الرغبات التي لا تتحقَّق ولا تُشبَع داخل الإطار العَلمانيِّ المُغلق؟

لماذا نجدُ العجبَ طبيعيًّا جدًّا

إنَّ محدوديَّة المنطق العلمانيِّ، والاختبارات العاديَّة للسموِّ الموجودة في الفنون، والاختبارات الاستثنائيَّة التي تُعظِّم الأُطُر العلمانيَّة حتَّى لأصلب الملحدِين- تفسِّرُ سبب أنَّ المعتقد الدينيَّ يواصلُ فرْض نفسه مجدَّدًا حتَّى في قلب الغرب العلمانيِّ.

في الحقيقة، من الطبيعيِّ للبشر أن يتحرَّكوا نحوَ الإيمان بالله، فقد كتب مُفكِّر

العلوم الإنسانيَّة مارك ليلا (Mark Lilla): "للكثير من البشر، يأتي حبُّ الاستطلاع بشأن الأمور الأعلى بصورة طبيعيَّة، بل إنَّ عدم الاكتراث بالأمور الأعلى هو ما يجب تعلُّمه".[٦١] وترى العلمانيَّةُ الصارمةُ أنَّ الناس هم فقط كيانات جسديَّة دون نفْسٍ، وأنَّه حين يموت الأحبَّاء هم ببساطة يتوقَّفون عن كونهم موجودين، وأنَّ الأحاسيس مثل الحبِّ والجمال هي فقط أحداث عصبيَّة كيميائيَّة، وأنَّه ليس هناك صواب أو خطأ خارجَ ما نحدِّدُه ونختاره في أذهاننا. وتلك الآراء والمواقف (التي تتبنَّاها العلمانيَّة الصارمة) هي على الأقلِّ مضادٌّ عميقٌ للحدس الذي لدى كلِّ الناس تقريبًا، وستستمرُّ نسبٌ ضخمة من البشريَّة في رفض هذه الآراء ببساطة لكونها مستحيلة التصديق.

يسألُ الكثيرون: لماذا يشعرُ الناس باحتياجهم إلى الدِّين؟ ربَّما نرى الآن أنَّ صياغة هذا السؤال لا تفسِّرُ استمرار الإيمان، فالناس يؤمنون بالله ليس فقط لأنَّهم يشعرون ببعض الاحتياج العاطفيِّ، بل لأنَّ الإيمان منطقيٌّ في ما يتعلَّقُ بما يرونه ويختبرونه. وفي الحقيقة، لقد رأينا أنَّ الكثيرين من عميقِي التفكير ينجذبون نحو الإيمان انجذابًا تلقائيًّا، إذ يتبنَّون الدِّين لأنَّهم يعتقدون أنَّه أكثر صحَّة وتوافقًا مع الخبرة البشريَّة أكثر من العلمانيَّة.

مع ذلك- أليس الدِّين إلى اندثار؟

أتخيَّل الآن قبول القارئ للكثير ممَّا ذكرتُه أنَّ العَلمانيَّة عاجزةٌ عن تفسير الكثير من نواحي الخبرة البشريَّة، وأنَّ لأعدادٍ كبيرة من الناس شعورًا قويًّا بوجود حقيقة فائقة. ولكن مع ذلك، قد تردُّ بسؤال: أليست أعدادُ مَن يفقدون إيمانهم أكثر كثيرًا ممَّن يؤمنون؟ طمأن أحدُ كتَّاب صحيفة "**تايمز**" (Times) اللندنيَّة القرَّاء أنَّ الدِّين يتضاءل لا محالة وسط الناس "إذ إنَّ ظلمُ العدالة الإلهيَّة، أو عدم منطقيَّة التعليم، أو التعصُّب تبدأ في إزعاجهم"، وخلص إلى أنَّ "العلمانيَّة والصور الأكثر اعتدالًا للدِّين ستنتصر على المدى الطويل".[٦٢]

يضع الكثيرون كامل ثقتهم في هذا الرأي، ومع ذلك فالدليل يناقضُ ذلك بقوَّة،

إذ يقولُ عالما الاجتماع بيتر بيرغر (Peter Berger) وغريس ديڤي (Grace Davie) إنَّ "أغلب علماء الاجتماع المتخصِّصين في علم اجتماع الأديان يتَّفقون الآن" على أنَّ فرضيَّة العلمنة- القائلة إنَّ الدِّين يتراجع حيثما يصبح المجتمع أكثر تقدُّميَّة- "قد ظهر خطؤها عمليًّا"[٦٣]، فدولٌ مثل الصين تصبح أكثر تديُّنًا (وتتحوَّل إلى المسيحيَّة) حتَّى مع تحرُّك المجتمع نحو التقدُّم العلميّ[٦٤]، ولم تجد دراسات اجتماعيَّة أخرى- مثل عمل خوسيه كازانوڤا (José Casanova) الأستاذ في جامعة "جورج تاون" (Georgetown)- أيَّ ميلٍ نحوَ انحدار الدِّين حينما تصبح المجتمعات عصريَّة.[٦٥]

إنَّ المُدهش جدًّا هو ما تتوقَّعُه الدراسات الديموغرافيَّة بأنَّ تعداد العلمانيِّين وليس تعداد المتديِّنين هو الذي يتَّجهُ نحو انحدارٍ على المدى الطويل، وتتوقَّعُ دراسة مركز پيو في نيسان/أپريل ٢٠١٥م أنَّ نسبة الملحدين واللاأدريِّين وغير المنتمين دينيًّا ستتراجع تراجعًا بطيئًا منتظمًا من ١٦,٤٪ من تعداد العالم اليوم إلى ١٣,٢٪ بعد أربعين عامًا. وفي كتاب "**هل يرثُ المتديِّنون الأرضَ؟**" *(Shall the Religious Inherit the Earth?)*، يتحدَّثُ إريك كوفمان (Eric Kaufmann) الأستاذ في جامعة لندن عن "كارثة العَلمانيَّة"، ويرى أنَّ تقلُّص العَلمانيَّة والدِّين المتحرِّر هو أمرٌ محتوم.[٦٦]

لماذا؟ هناك سببان أساسيَّان: أحدُهما يتعلَّقُ باتِّجاهات الاستبقاء والتحوُّل، إذ يشيرُ الكثيرون إلى النسبة المتزايدة من الشباب "غير المنتمي إلى دِين" في الولايات المتَّحدة بوصفها دليلًا على حتميَّة تقلُّص الدِّين، لكنَّ كوفمان يُظهِر أنَّ تقريبًا كلَّ الجُدد مِن غير المنتمين دينيًّا يأتون ليس من مجموعات دينيَّة محافظة، لكن من مجموعات أكثر تحرُّرًا. ويكتبُ أنَّ العَلْمَنة "تُقلِّصُ بالدرجة الأولى...أشكال الإيمان الوسطيِّ الذي يُعدُّ مفروغًا منه، والذي يستغلُّ كونَه معترَفًا به وشائعًا".[٦٧] وهكذا، فأشكال الدِّين "المتحرِّرة، الوسطيَّة" التي يظنُّ معظم العلمانيِّين أنَّها الأشكال التي من المُرجَّح أن تبقى موجودةً لن تبقى موجودة، وفي مقابل ذلك المجموعات المتديِّنة

المحافظة لديها معدَّل استبقاء عالٍ جدًّا من الحفاظ على أبنائها، ويجلبون إلى الإيمان أكثر ممَّا يخسرون.[٦٨]

السبب الأساسيُّ الثاني في أنَّ العالم سيُصبحُ أكثر تديُّنًا هو أنَّ المتديِّنين ينجبون أطفالًا بأعدادٍ أكبر، في حين كلَّما كان المجتمع أقلَّ تديُّنًا وأكثر علمانيَّةً، يحدث الزواج بمعدَّلٍ أقلَّ وتكون العائلات أصغر عددًا.[٦٩] هذا الأمر صحيحٌ في العالم بأسره وفي داخل كلِّ مجموعة في كلِّ بلد وفي كلِّ مستوى تعليميٍّ وفي كلِّ طبقةٍ اقتصاديَّة، لذا فليس الأمرُ أنَّ المتديِّنين، مثلًا، يُنجِبون أطفالًا أكثر لأنَّهم أقلُّ تعلُّمًا، فحتَّى حين يصبح المتديِّنون أكثر تعلُّمًا وتمدُّنًا، فهُم يستمرُّون في التفوُّق عددًا على نُظَرائهم من غير المتديِّنِين "تفوُّقًا كاسحًا".[٧٠]

يجب أن يكون واضحًا أنْ ما مِن أحد ينادي بأنَّه "كلَّما زاد عددُ الأطفال، كان الأمر أفضل" دائمًا، فقد نادى جيفري ساكس (Jeffrey Sachs) الاقتصاديُّ في جامعة كولومبيا أنَّ زيادة التعداد السكَّانيِّ ومعدَّلات المواليد المفرطة تسهمان إسهامًا ضخمًا في مشكلة الفقر في العالم.[٧١] غير أنَّ من الخطأ أن نظنَّ أنَّه ما من مشكلة عكسيَّة؛ فالثقافات التي ليس لديها معدَّل مواليد بمستوى كافٍ للتعويض تنتهي حيث تتعرَّضُ للإزاحة مِن قِبَل سكَّانٍ وثقافاتٍ أخرى، ويُظهِرُ كوفمان وآخرون أنَّ أكثر المجتمعات علمانيَّة تحتفظُ ببقائها عبْر هجرة الشعوب الأكثر تديُّنًا.[٧٢]

في الولايات المتَّحدة وأوروبَّا ستستمرُّ المجموعات الدينيَّة المتحرِّرة في فقدان الأعضاء، الذين يؤدُّون إلى زيادة أعداد العلمانيِّين وغير المنتمين دينيًّا، في حين ستنمو الأديان التقليديَّة المألوفة[٧٣]، ومن الصعب على الصفوة الثقافيَّة استيعاب هذا، فالأديان المتحرِّرة هي الأديان الوحيدة التي يؤمن المفكِّرون العلمانيُّون بمعقوليَّتها. في العرض المسرحيِّ المشهور "**كتاب المورمون**" *(The Book of Mormon)*، تظهرُ الشخصيَّات الرئيسيَّة في صورة مُرسَلِين لهم وجهات نظر تقليديَّة، لكنَّهم في النهاية يصلون إلى حسبان أنَّ القصص الموجودة في نصوصهم المقدَّسة هي فقط

تشبيهات تقودُنا إلى المحبَّة وإلى جعْل العالم مكانًا أفضل. أمَّا التأكيدات بشأن الحياة الأخرى، بل حتَّى التأكيدات بشأن الله، فهي غير ضروريَّة. وهذا الدِّين المتحرِّر القائم على "كلٍّ ما هو أفقيٌّ وليس رأسيًّا" ينال استحسان الأشخاص الأميركيِّين العلمانيِّين، لكنَّ هذا النوع من الإيمان، كما أشار علماءُ، هو نوع الإيمان الذي يختفي في العالم بأسرع ما يمكن.[٧٤] وفي الوقت نفسه، فإنَّ أنواعَ الإيمان المعتمدة على دعوة الناس ليهتدوا إلى الإيمان هي في نموٍّ مُطَّرد.

قبل بضع سنوات تحدَّثْتُ مع رجلٍ كان يخدمُ في إحدى الطوائف المتحرِّرة في مَنهاتن مدَّة أربعة عقود، وأخبرني أنهَّ في فترة تدريبه للخدمة في ستِّينيَّات القرن العشرين، كان معلِّموه يخبرونه بكلِّ ثقةٍ بأنَّ الدِّين الوحيد الذي سيبقى على قيد الحياة في المستقبل هو ذاك النوع العصريُّ الأكثر اعتدالًا الذي لا يؤمن بالمعجزات أو بألوهيَّة المسيح ولا يؤمن بالقيامة الجسديَّة الحرفيَّة، لكنِّي حين تحدَّثتُ إليه كان يقترب من التقاعد ولاحظَ أنَّ معظم أبناء جيله من الخُدَّام كانوا يقودون كنائس فارغة وجماهير متعبِّدين من المسنِّين الذين يتضاءل عددُهم، وقال إنَّه "من الغريب أنَّ هؤلاء الخُدَّام كان بإمكانهم إبقاء الأبواب مفتوحة فقط بتأجير المكان لكنائس أخرى تنمو وتنبضُ بالحياة وتؤمنُ بكلِّ التعاليم التي كان معلِّمونا يخبروننا بأنَّها ستضمحلُّ قريبًا معَ الزمن".

يتَّضحُ إذًا أنَّ فرديَّة الثقافة العصريَّة لا تقود بالضرورة إلى انحسارٍ للدِّين، بل تقودُ إلى انحسارٍ للدِّين **الموروث**، ذاك النوع من الدِّين الذي يولدُ فيه المرء[٧٥]، فالدِّين الذي يتضاءلُ هو ذاك الذي يأتي مع ما يُعيَّن للشخص من هويَّة وطنيَّة أو عِرْقيَّة، مثلما الحال في عباراتٍ مثل: "أنت هنديٌّ، ومن ثمَّ أنت هندوسيٌّ، أو أنت نرويجيٌّ ومن ثمَّ أنت لوثريٌّ، أو أنت بولنديٌّ ومن ثمَّ فأنت كاثوليكيٌّ، أو أنت أمريكيٌّ وبناءً عليه يجب أن تكون عضوًا صالحًا في طائفة مسيحيَّة". أمَّا الدِّين الذي لا يواجه الانحسار في المجتمعات العصريَّة فهو الدِّين **المختار**، الدِّين المبنيُّ ليس على العِرْقيَّة

أو فقط على النشأة، بل على قرارٍ شخصيٍّ.[٧٦] فمثلًا، الإنجيليُّون البروتستانت فقط من بين كلِّ المجموعات الدينيَّة في الولايات المتَّحدة هم مَن يستقبلون عددًا ممَّن يهتَدون إلى الإيمان أكثر ممَّن يخسرونهم- وهو تمامًا الأمر الذي يجعلُنا نتوقَّعُه بيرغر وكازانوفا وديڤي وآخرون من علماء الاجتماع.[٧٧]

وتنمو المسيحيَّةُ في العالم غير الغربيِّ نموًّا مبهرًا، ففي الأحد الماضي كان هناك عددٌ من المسيحيِّين يحضرون الكنيسة في الصين أكثر من عدد المسيحيِّين الحاضرين في كلِّ "أوروبَّا المسيحيَّة".[٧٨] وبحلول عام **٢٠٢٠م** ستكون المسيحيَّة قد نمت من ١١,٤ مليون مسيحيٍّ في شرق آسيا (الصين وكوريا واليابان) في ١٩٧٠م و١,٢٪ من تعداد السكَّان، إلى ١٧١,١ مليونًا و١٠,٥٪ من تعداد السكَّان.[٧٩] وفي عام ١٩١٠م، كان ١٢ مليون نسمة أو ٩٪ من تعداد قارَّة أفريقيا مسيحيِّين، أمَّا عددُهم فسيصل إلى ٦٣٠ مليونًا أو ٤٩,٣٪ بحلول عام **٢٠٢٠م**.[٨٠] وفي الأحد الماضي كان هناك في **كلٍّ من** نيجيريا وكينيا وأوغندا وتنزانيا وجنوب أفريقيا عدد من الأنغليكانيِّين في الكنيسة أكثر من عدد الأنغليكانيِّين والأسقفيِّين في بريطانيا والولايات المتَّحدة معًا.[٨١]

كوفمان، وهو أكاديميٌّ وعلمانيٌّ كنديٌّ، يجيب عن السؤال الموجود في عنوان كتابه- "**هل يرث المتديِّنون الأرضَ؟**"- في الصفحة الأخيرة من كتابه بإجابة **نعم** جليَّة لا لبس فيها.[٨٢] وفي حوارٍ له مع مجلَّة "**نيو هيومانيست**" (New Humanist)، سُئِل كوفمان ما إذا كان ممكنًا أن العلمانيَّة تحوِّل الدفَّة و"تبلي بلاءً أفضل في كسب [الناس]"، فأجاب قائلًا: "يقدِّمُ الدِّين ذلك السحر، وذلك المعنى والشعور، وفي اللحظة الحاليَّة، نفتقرُ نحن [العلمانيِّين] إلى ذلك".[٨٣]

لماذا ينبغي لك الاستمرار في القراءة

لماذا إذًا ينبغي لك قراءة هذا الكتاب؟ أحد الأسباب سببٌ عمليٌّ، ففي هذا الفصل لم أتناول ما إذا كان الدِّين صحيحًا؛ فقط سعيتُ لإظهار أنَّ الدِّين ليس

قوَّة محتضرة. في كتاب "**ليس باسم الله**" *(Not in God's Name)*، يخلص المعلِّم اليهوديُّ جوناثان ساكس (Jonathan Sacks) إلى أنَّ "القرن الحاديَ والعشرين سيكون أكثر تديُّنًا من القرن العشرين".[٨٤] ويتطرَّقُ في كتابه إلى الكثير من الحقائق التي علَّقنا عليها في هذا الفصل؛ فالعلمانيَّة في القرن العشرين لم تثبت قدرتها على تقديم إرشادٍ أخلاقيٍّ للتكنولوجيا أو للدولة. ويشعرُ الكثيرون بحدسٍ ضعيفٍ أو قويٍّ أنَّنا نحن البشر وحبَّنا وتطلُّعاتنا لا يمكن أن تُختزَل إلى المادَّة والكيمياء والجينات. وأخيرًا، يرى ساكس- بالإشارة إلى معدَّلات المواليد المنخفضة في الدول العلمانيَّة- أنَّ الدِّين يقدِّمُ أساسًا للنموِّ وليس لانحدار المجتمعات البشريَّة، لذا نحتاج إلى هجْر الرأي القائل إنَّ الإيمان الدينيَّ لا يستحقُّ انتباهَنا لأنَّ مثل هذا الرأي هو اعتقاد ليس في محلِّه، وأدعوك لأن تستمرَّ في القراءة حتَّى وإن كنتَ غير مهتمٍّ بالمسيحيَّة، على الأقلِّ بهدف فهْم إيمان الملايين المتزايدة من الناس الذين يجدون الإيمان جذَّابًا.

السبب الآخر للاستمرار في القراءة هو سببٌ شخصيٌّ؛ فقد تجدُ أوصافُ "الملء" والأمور الحدسيَّة الأخرى صدى في اختباراتك الشخصيَّة. ولكن ماذا لو لم تجد مثل هذه الأوصاف أيَّ صدى؟ قد يكون لسان حالك: "لا أشعرُ بأيِّ احتياج إلى الله في حياتي"، لكنَّ الإيمان لا ينتجُ فقط من الاحتياج العاطفيِّ، ويجبُ ألَّا يكون هكذا أيضًا، فالكثير من المفكِّرين العلمانيِّين الذين أشرنا إليهم تحرَّكوا على مضضٍ نحوَ الدِّين ليس عن احتياج عاطفيٍّ، بل لأنَّ الإيمان بالله أكثر منطقيَّة من عدم الإيمان في ما يختصُّ بالحياة. وكما أشرنا يأتي الناسُ إلى الإيمان بالله بخليط من الأسباب العقلانيَّة والشخصيَّة والمرتبطة بالعلاقات، وسنستكشفُ كلَّ هذه الفئات في هذا الكتاب.

فكِّر أيضًا في ما يقولُه القدِّيس أغسطينوس إلى الله في مؤلَّفه "**اعترافات**" إذ يقول إنَّ "قلبنا لن يهدأ إلى أن يجد راحتَه فيك".[٨٥] وبكلماتٍ أخرى، إذا كنتَ

تختبر الاضطراب والقلق وغياب الرضى في حياتك، فربَّما تكون هذه الأمور علاماتٍ تشيرُ إلى احتياجٍ إلى الله؛ احتياجٍ موجود لكنَّه غير مُعترف به بوصفه كذلك، وتلك هي نظريَّة أغسطينوس، ويستحقُّ الأمر أن تقضي بعض الوقت لاستكشاف ما إذا كان قَولُه صحيحًا أم لا.